العبرة بطول العبرة

تأليف : العلامة الحاج أحمد سكيرج

تحقيق : ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمان الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

العبرة بطول العبرة

لقد جلت في هذه السويعة في أيام حياتي الماضية إلى الآن. وما حصلت عليه من الخير، وما فعلته من الشر، حتى أميز ما أنا عليه من سوء الحالة التي طالما اختلج في صدري أن عاقبتها وخيمة (1) إن لم أبادر بالمثوبة والإقلاع بإقماع(2) النفس عن غيها، ورفع الحجاب لها عما وراءه من سوء العاقبة التي لم يخطر لها ببال، بما أدلاه لها قرينها من حبل الغرور(3). فتجلت لها تلك الأيام الخالية كلها منذ عقلت القربة في ظلمات بعضها فوق بعض، وتحققت بأني على خطر في كل ما صدر مني حالة الصبا وبعدها، مما لو أمليت هنا ما استحضرته من المنكرات لتخيل كل ذي عقل بأنه لا يوجد على الكرة الأرضية إنسان مثلي أنفق نفيس أنفاسه في ما لا طائل، ولم يحصل لديه من الخيرات حاصل.

فوقفت هنا وقفة خجل مزينا لنفسي بنفسي كتم ما جنيته من المخالفات، الموجبة لما أستحقه من الطرد عن حمى أهل الصلاح، أو أعترف به لتنكف(4) نفسي الأمارة عن غيها(5) الذي لم تلقي له بالها، وهي في عمه(6) هواها، تحسب أنها على شيء. وفي الحقيقة هي غير شيء، غير أن الكريم جاد وأعطى. ولولا السابقة التي سبقت من الحق بالقضاء في خلقها في الصورة الإنسانية لقلت أن البهيمة أحسن منها حالا، وهي كذلك إن لم تتداركها العناية الإلهية بالألطاف، ويختم لها بالسعادة التي نرجوها من الله من غير عمل أدلي به إليه سوى ظني الجميل فيه، متوسلا إليه بالرسول الآمين عليه الصلاة والسلام في التفضل بذلك، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

ولقد ألزمني الوارد الذي ورد علي الآن أن أبين لنفسي الجاهلة أو المتجاهلة ما أنا عليه، لتعلم أنها في غفلة عما اكتسبت من الإثم، وأن كفة ميزانها طاشت(7)، وأنها بين القوم مستحقة للوم، فيتبين لها أمرها، حلوها ومرها، فتختار لها ما يحلو من المبادرة لإصلاح ما أفسدت،

---

(1) وخيمة : ثقيلة
(2) بإقماع : بقهر ورد
(3) الغرور : الأباطيل
(4) لتنكف : لتتوقف
(5) غيها : ظلمها
(6) عمه : ضلال
(7) طاشت : خفت

واستدراك ما ضاع لها من الربح الذي اغتنمه غيرها. أو تبقى في قيد هواها مقيدة مسوقة بأعنة(8) العنى(9) إلى القضاء المحتم، جعل الله العاقبة خيرا بمنه

ويا ليتني حصلت طبق أمانيا فأخلص منها لا علي ولا ليا

وها أنا ذا أطلعها على النزر(10) اليسير من تلك الأحوال، وأريها ما في طاعتها التي اعتمدت عليها من دسائس قرينها الذي لم يألو جهدا في التدليس(11) عليها، فيما يروجه في سوقها من زائف(12) التجارة البائرة عاجلا وآجلا مع الخسران المبين. الذي سامها به وهي في غفلتها سائرة، مصرة على ما تتوهمه من النجاة باعتمادها على حسن الظن منها، الذي هو بلا شك مجرد غرور، تظاهر لها في صورة حسن الظن النافع، وهو في الحقيقة سمها الناقع(13)، كما اتضح لها ذلك في خاصة نفسها، وأضمرته في صميم الصميم حتى لا يفتضح سرها عند من يظن فيها الخير وهم كثير، ولو اطلعوا على ما لديها من العيوب، التي انسدل عليها ستر الغيوب، ما رد عليها أحد السلام، فضلا عن أن يعتقد فيها ما يوجب الإكرام، ولكن سبحان الستار، الذي تجلى بالستر على عبده في هذه الدار، وله الفضل في إسبال الستر حتى في تلك الدار، وسأكتب هنا حرفا واحدا من حروف لا حصر لها في الصور، تحت كل حرف ما لا تفي العبارة بشرحه، إلا ما كان من هذا الحرف الذي أكتبه، فهو بالنسبة للحرف الواحد منها كنقطة طل(14) في بحر.

ولا عجب إذا قلت أني ملأت أيام حياتي بما لا خير فيه، مما لا يحمد أمره في الحال والمآل، فإني معدن ذلك من حيثية كوني على جرف هار(15)، انهار بي في مهاوي الهوى، منذ ذلك الحين وأنا منهو من غير شعور مني بالرجوع إلى الحق بالتوبة النصوح، وكلما عزمت عليها لم أجد مني قابلية الصلاح، ولا داعية الفلاح. فوا أسفاه إن دام بي هذا الحال بعد ما تجلى(16) لنفسي ما هي عليه، واتضحت لها ماهيتها، وشاهدت ما سجل عليها في كتابها الذي ستلتزم بقراءته، وتشهد على نفسها بنفسها. وإني لعلى يقين إن لم يوافقها الحق بالإتعاظ، لا تلقي لما أمليه لها هنا بالا ولا تسمع مني كلمة. وعلى كل حال فإني أشرح لها ذلك لعل الله أن يهديها فتسير بي سيرا(17) حثيثا إلى نيل الخير وبذل الخير، فتكون لها بفضل الله الحسنى والزيادة. وما ذلك على الله بعزيز.

---

(8) أعنة : جمع عنان وهو اللجام
(9) العنى : التعب والنصب وغير ذلك من المقاساة
(10) النزر : القليل
(11) التدليس : الخديعة
(12) الزائف : المردود لغش
(13) الناقع : بمعنى المجتمع
(14) طل : مفرد طلا وطلال وهو الندى
(15) هار : ضعيف
(16) تجلى : ظهر
(17) حثيثا : سريعا

وها أنا ذا أشرع في بيان ذلك لها، فلتستعدي يا نفسي للمرافعة عنك بحجة قوية حتى لا يلحق بك العار المنوط بك، أو اعترفي وتوبي طالبة من ربك المغفرة، فإني معترف، وما أراك إلا في ضلالك القديم، مصرة على المكابرة حتى ترين عين اليقين، فانظري إلى هذه الأطوار، وما تدور فيه من الأدوار :

الطور الأول

في دور النفس في حضرة القدس
وما كانت متحلية به وما صارت عليه الآن

كنت أيتها النفس في العلم الإلهي كما أنت عليه الآن، ولا يزال ينكشف لك ما هو عنك غائب في مظاهر تقلباتك، حتى تقفي على عين الحقيقة يوم يكشف لك عن ساق فترين الحقيقة منك كما هي في نفس الأمر عند الحق من غير تعد عليك في ذلك كله. في الأمس واليوم والغد، بل من يوم لا يوم إلا ما شاء الله من التأييد، فينجلي عنك الحجاب، وتقرين للحق بما أقررت به في عالم الذر المخاطب في يوم "ألست بربكم(18)" فقد أقررت بالتوحيد، وأعطيت الحق حقه، فامتثلت أمره في جميع حركاتك وسكناتك من ذلك الحين، ولا حين عند الحق، وإنما الحين بالنسبة إليك. فأنت ممتثلة له قطعا بشعور وبدون شعور، فإن نظرت إلى ما كنت عليه وما أنت عليه. وما أنت متقلبة فيه في هذه الحياة وبعدها، اتضح لك أنك جارية على النهج الذي تدعوه نفسك التي هي حقيقتك طبق ما أجبت به، فلقد أقررت عالمة بالحق حين كنت مجردة. فكيف خامرتك(19) الغفلة حين ازدوجت بهذا الهيكل الذي خرج لدار الإمتحان.

فإن قلت مالي حيلة في المقدور، والإحتجاج بالقدر عنك في حضرة التكليف من المحظور، فكيف السبيل في النجاة ؟ قلت الرجوع إلى الحق حق، فاعرفي مرتبتك من الخلق، وأنك في درجة تصعدين فيها وتنزلين بحسب ما تنسبه إليك في يقظتك وغفلتك، والنجاة كل النجاة في التعلق به تعلقا يناسبك في جميع شؤونك، بتعلقك بالحبل الذي أدلاه إليك من حضرة القدس، وهو الحجاب الأعظم بينك وبين اضمحلالك(20) من نفس الوجود، وذلك عين الرحمة عليه الصلاة والسلام، فاتبعي سبيله. فهو دليل الحق، بين الخلق، وما عليك إلا أن تعملي، ولا تتكلي، وإياك والإعتماد على العمل، فإنه من الزلل، وكل مسير لما خلق له.

---

(18) سورة الأعراف، الآية 172
(19) خامرتك : بمعنى خالطتك وحجبتك
(20) اضمحلالك :تلاشيك وانحلالك

الطور الثاني

في دور النفس من صلب(21) إلى صلب إلى الآن

كنت أيتها النفس في صلب آبائك من آدم إلى الآن، بانتقال من صلب إلى رحم، فهل كان تقلبك في الساجدين حتى ظهرت للوجود فتعود بركتهم عليك ؟ فإن تقولي ليس هذا من شأنك لأن ذلك أمر الغيب الذي يرجع فيه للسابقة التي ليس بيد المخلوق منها شيء، فإني أقول لك يحق لك أن تنظري في أصلك فتتحققي به حتى تعلمي أنك في شك من نسل من ومن، فلست من نسبتك على يقين، وليس بنافع لك تمسكك بحيازة النسبة، فإن الظاهر لا يعتمد عليه عند تجلي الحقيقة يوم يظهر الباطن في مظهره الحقيقي، وأخشى أن لا تكون نسبتك صحيحة، وإنما انتحلتها لأصلك، أو انتحلها(22) أباؤك رحمة الله وبركاته عليهم، فاعترفي إذن بأنك في شك من نسبتك، ومدي يدك لربك بطلب الستر، وتوبي من الإعتماد على النسبة التي لست أنت منها على اليقين، حتى تتجلي الحقيقة، واطلبي الستر منه على كل حال.

الطور الثالث

في دور النفس من الرحم إلى الآن وبعد الآن

كنت أيتها النفس في راحة بال منذ نفخ الروح في هيكلك قبل الخروج من الرحم وبعده، إلى أن عقلت، فلم يكن لك شعور فيما ينفعك ويضرك، والحق تعالى تكفل لك بما لم يقدر على التكفل به سواه، بأن وضع الشفقة في قلب من رعاك ورباك وصرف في تغذيتك وتربيتك نفيس(23) أنفاسه، وأنت عن ذلك كله لاهية حتى عقلت، فلم تتذكري ما كنت عليه، وكدت أن تنسي خالقك ومربيك الحقيقي، الذي تنطق المكونات بوحدانيته، وإنه الذي خلق فهدى، وقد قال لسان حضرته في مخاطبة أمثالك :

تذكر جميلي فيك إذ كنت نطفة(25) ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا(24)

وسلم لي الأشياء واعلم بأنني أصرف أحكامي وأفعل ما أشا

---

(21) الصلب : عظم في الظهر ذو فقار، يمتد من الكاهل إلى العجب أو أسفل الظهر، وجمعه أصلاب

(22) انتحلها : بمعنى انتسب إليها

(23) النفيس : الغالي

(24) الحشا : مفرد أحشاء وهو ما في البطن

(25) نطفة : الماء الصافي قل أو كثر، والمراد بها في هذا البيت إظهار مدا نعم الله وآلائه على هذا الإنسان سواء في بطن أمه أو بعدما تضعه، قال تعالى : والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا

فماذا تذكرته من جميله يا غافلة منذ صرت عاقلة، فلقد رأيتك منذ عقلت القربة. صرت تهتمين بنفسك لنفسك، وتدبرين لك على قدر حيلتك ما حجبك عن صنع مدبر الأمور لك، ومع ذلك فإنه لم يتركك في الحقيقة، وإنما امتحنك بالتكليف لتتيقظي من غفلتك من تحت رق الهوى، الذي أنساك ما كنت عليه من التوكل عليه، حتى عقلت فعقلت نفسك بنفسك، بما نسبته لك، ولو عقلت في الحقيقة ما اهتممت بدنياك بما يعمر خرابها، وأنت مراد للأخرى.

فماذا حصل لك، وماذا دهاك حتى زعمت أنك مدبرة، وأنت بتدبيرك مدمرة(26)، لما ينفعك في الدارين، بإعانة قرينك الذي لازمك في سائر أطوارك، فهلا شعرت بما أصابك في هذه الحياة من التقاعد(27) عن أداء ما كلفك الحق به، ولم تنهضي إليه لا بداعية تحصيل الآجر، ولا بما ترينه وتسمعينه من صواعق الزجر، فيما يرجع لهذا الآمر، وإذا قمت بشيء منه خامرك فيه ما خامرك، وأنت غافلة إلى الآن وحتى الآن، فانظري بعين الإستبصار(28) من حين التكليف إلى ما صدر منك من التقصير والتهاون الذي تقضين به من أول وهلة على نفسك بنفسك بأنك هالكة تائهة، في فيافي(29) القطيعة التي تستحقين بها ما تستحقين من التوبيخ وسوء الحال والمآل، إلا أن تداركك العناية بفضل الإله الذي يجبر قلب الكسير، فتعلقي بحبله المتين، وارجعي إليه في الحين، فإنك راجعة إليه ولو بعد حين، فيراك منقادة في خجل ووجل، أو مكرهة على خطر وخطل(30)، ولا ينفعك اعتذارك في تقصيرك في العمل من قولك : مكره أخاك لا بطل، فاطلبي منه العفو والعافية، فهو الذي لا رب لك سواه.

الطور الرابع

في دور الطفولة إلى الآن وبعد الآن

أيتها النفس بعدما حجبت عنك الفطرة(31) التي ولدت عليها بترعرع هيكلك الذي كلما تفطن بهذه الحياة ازداد غفلة عما كنت شاعرة به، فكنت في أيام طفولتك محجوبة عن الشكر فيما قبل هذه الحياة وما بعدها، حتى في حالتك الراهنة كنت لا تفرقين بين خير وشر، ولقد كان غيرك في حال الطفولة ممن سبقت لهم العناية في يقظة عارفين بربهم، غارفين من الإمدادات العرفانية ما شهد لهم به كل من عرفهم، على حسب تفاوتهم فيما خص به كل واحد منهم من الموهبة الربانية، واللطيفة الإحسانية.

---

(26) مدمرة : مهلكة
(27) التقاعد : بمعنى التوقف
(28) الإستبصار : التأمل
(29) الفيافي : القفار
(30) الخطل : الحمق والخفة
(31) الفطرة : الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته، وهي صفة الإنسان الطبيعية.

ولقد شهدت لهم الكرامات المدونة(32) بأنهم من أهل الخصوصية، فنشأوا فيها وتربوا عليها في حفظ الله ورعايته تحت التوفيق الإلهي، بحيث سلكوا في تلك الحال على ما حمدوا عليه، فأشرقت بدايتهم التي وجدوا بها النور في ظلمات الأغراض العارضة في زمن الصبا إلى آخر طور من حياتهم، سيان(33) ذلك منهم في حال الطفولة ممن لم يبلغ منهم سن التكليف أو بلغ مبلغ الرجال المشكور فعلهم، فلو هلكت قبل الصبا لكنت في راحة مما تحملته في أطوارك إلى الآن، وأنت لا زلت في عمه الهوى تتلونين تلون الحرباء(34) في تطوراتك، في الخلوة والجلوة، حتى في هذه الحالة الراهنة تظهرين خلاف ما تبطنينه من الأحوال، التي صرت بها في أوجال(35).

فقولي لي عفا الله عنك ما اكتسبت زمن الطفولة التي مضت أدراج الرياح، فانظري فيما سلف لك، واخبريني عن مزية امتزت بها بين أقرانك في ذلك الإبان، لأشكرك عليها، فلا وربك ما رأيت لك ما تحمدين عليه سوى بضعة سوائع مرت، وأنت في الكسل غادية رائحة، ولولا العناية التي تفضلت عليك من غير حق تستحقينه في ذلك الحين من تكليف غيرك بك لبقيت في حيز الضلال، وهل تذكرت يا نفس خيرا تعتمدين عليه، فصفيه لي بعد أن تزنيه وتريه بميزان الإخلاص راجحا، فمالك ساكنة، وعهدي بك تقولين وتصولين، حين يخلو جوك الذي فيه تجولين، فما أسمع منك الآن إلا همسا(36)، وكلاما نفسانيا ينشد لسان حاله في حقك.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

فإذا تحققت بأنك لم تعملي خيرا، ولا خير عندك تعتمدين عليه، ورأيت هذا وهو بين عينيك واضح، فدعي التبجح(37) جانبا، والجأي إلى ربك معتصمة بالحبل المتين، لينقذك من تيار بحر الشهوات المفضية لهلاكك في الدارين، وهو الرسول الأمين، عليه الصلاة والسلام.

الطور الخامس

في دور النفس في أيام الصبا إلى الآن

إيه أيتها النفس أتذكرين أيام الصبا قبل بلوغك، حين كنت في غمرات اللهو سائرة، وأنت تخبطين خبط عشواء(38) بإلقاء نفسك فيما لا تحمد عقباه، ولا تفرقين في تلك الحال بين ما ينفعك لا في الحال ولا في المآل، إلا أن همتك مصروفة في تحصيل ما يوافق هواك، الذي أوقعك فيما وقعت فيه من المخالفات، التي تذكرين بعضها في هذه الساعة، وأخذتك الغفلة عنها منذ فعلتها، مع ما نسيته وهو في لوح الوجود محصى، من غير أن ينساه من أحصاه عليك ممن كلفه الحق بك قبل تكليفك وبعده، فإن قلت إن ذلك كان أيام الصبا قبل التكليف، فأقول لك أي فائدة حصلت عليها في ذلك الحين، تذكر لك بين المفلحين، فقد أفلح جماعة من أقرانك في مثل سنك، فسارعوا للخيرات، فانطبع في مرآة

---

(32) المدونة : المحفوظة والمسجلة.
(33) سيان : لا فرق.
(34) الحرباء : ضرب من الزحافات تتلون في الشمس ألوانا مختلفة ويضرب بها المثل في التقلب.
(35) أوجال : جمع وجل وهو الخوف
(36) الهمس : الصوت الخفي
(37) التبجح : الإفتخار والفرح والتعاظم
(38) خبط عشواء : المراد بها الناقة التي لا تبصر أمامها

قابليتهم ما حمدوا عليه بعد التكليف، حتى انقادت لهم النفس التي كانت في الجموح(39) نافرة(40)، فأقبلت على شأنها بما اعتادته بطيب نفس، وأنت لا تقومين إلا بكره في إكراه بعد ذلك الحين.

ألست تذكرين أيتها النفس كذا وكذا مما سأذكره لك، وأنت تعرفينه منك، وأنا أتحققه منك، مما هو من عيوبك التي هي ظاهرة للعيان، وترينها بعيونك التي تغضينها(41) على قذاها(42)، فماذا تصنعين حين يعرض عليك الذي عملته قبل بلوغك، فأحرى ما عملته بعد البلوغ، فلا تقولي إنك غير مؤاخذة به لصدوره أيام الصبا قبل التكليف، فإني أقول لك المؤاخذة متوجهة عليك من وجوه، حيث أنك في السابق ساهية، وعن اللاحق لاهية، فبأي وجه تلقين ربك حين يلقاه من كان في سنك مفلحا في صلاح حال، وأنت لم تحصلي على نتيجة تحمدين عليها في ذلك الحال، سيما وقد بلغت إلى هذا الحال. فإذا تحققت بما أنت متحققة به من أعمالك التي لم تزل مقيدة(43) عليك لتقفي عليها، ولم تقومي على ساق الجد في تدارك خللها بعد تكليفك إلى الآن، فاجزمي بأنك في ضلال تائهة، مسوقة بسلاسل الهوى، وأغلال الغفلة إلى البوار(44)، فانظري إلى ما يخلصك من ورطتك قبل أن يتحقق في حقك ما تتخوفين منه، وكأني بك غير مساعدة لي في خلاص ربقتي(45)، وإخلاص أعمالي التي لا تزال مشوبة(46) بالحظوظ، وإلى الله أرغب في نجاتي مما تقودني إليه أغراضك، والهوى من خلفي يدافعني لاتباعك، على إحراز مرادك، حتى كدت أن أسقط على وجهي، وقد سقطت مرارا بعثرات في ذيول الخيلاء(47) والكبرياء، التي جررتها على بساط الفخفخة(48) الكاذبة بالتبجح على الأقران، ولم أشعر بما أنا فيه، وأنت الآن متحققة به، وأنا لا أنفيه، فبلغت المنى، وأنت في العنى، غير محتفلة بما صرفته من أنفس نفيس في ذلك، وأمرك غير محمود هنالك.

---

(39) الجموح : يقال رجل جموح أي الذي يركب هواه فلا يمكن رده
(40) نافرة : كارهة وآنفة
(41) تغضينها : أي تطبق جفنيها كي لا ترى شيئا
(42) القذى : جمع قدي وهي ما يقع في العين أو في الشراب من تبنة ونحوها
(43) مقيدة : بمعنى مكتوبة
(44) البوار : الهلاك والكساد
(45) ربقتي : بمعنى أمري
(46) المشوب : المختلط
(47) الخيلاء : العجب والكبر
(48) الفخفخة : يقال فخفخ الرجل أي فاخر بالباطل

فراقبي الله نفسي في إنك في حال صحوي وسكري أنت أماره
لقد تحكمت في كما أردت وما أراك فيما أردت غير غداره

فالله يحفظني من مكرك، ويسلك بي مسالك النجاة حتى يعمني برداء رضاه.

الطور السادس

في دور التكليف إلى الآن

أيتها النفس أعدوة أنت لي أو صديقة، فاخبريني بالحقيقة، لأكون من أمرك على بال، فقد خاب لي الظن فيك، واضطربت أوهامي(49) في شأنك، أتظنين أنك ناجية إن هويت في المهاوي، التي يدفعني إليها هواك، وأنت من ورائي تضحكين على ما ألم بي من أهوال، في تقلب أحوال أو حال.

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي عندها أولوا العقول

لا والذي جعلني منك وجعلك مني إنك لشريكتي في الردى(50) إن ارتديت، ورفيقتي في السراء والضراء كرهت أو رضيت، فما لك أيتها النفس في الغواية(51) تهيمين وإلى متى وأنا بجانبك منهوك(52) القوى في السلوك على طريق غير مستقيم، وأنت تعلمين وإن تجاهلت أنك مكلفة بما كلفك الحق به تفصيلا وإجمالا، صحة وإعلالا(53)، فيا ترى هل قمت بما قام به غيرك من المكلفين مثلك، لا أراك قبل اليوم مهتمة بهذه الشؤون، كأنك غير مخاطبة بصيانة دينك المصون، وأنت في المجون(54) ذات جنون، والجنون فنون، فقولي لي يا هداك الله هل جهلت أو تجاهلت هذا، فقد حرت(55) في أمورك، في ورودك وصدورك، حيث أراك في بعض الأحيان مشفقة على شبحك الذي شيدته يد القدرة في فضاء الوجود، طبق ما فيه مشهود، إن ألم بي أضعف ألم جزعت(56) جزعا، ولا كجزع المحب على مصيبته في محبوبه الوحيد، فتقومين وتقعدين في جزعك الذي لا يقر لك معه قرار حتى تفزعين بفزع هائل إلى ما تعالجين به ذلك الألم، الذي بشبحك ألم، ثم لا

---

(49) الأوهام : التخيلات والظنون
(50) الردى : الهلاك
(51) الغواية : الضلالة
(52) منهوك : مغلوب
(53) إعلالا : من العلة وهي المرض والسقم
(54) المجون : الرجل الماجن أي الذي لا يبالي قولا وفعلا كأنه صاب الوجه
(55) حرت : بمعنى جهلت وجه الصواب
(56) جزعت : بمعنى لم أصبر عليه

يهمك أن ترميه في حال صحته، بل وفي حال سقمه، على أغراضك بإقبالك لما لا تحمد عقباه، من غير مبالاة منك لما يلقاه من وخامة(57) العاقبة، ولو كان في بحبوحة(58) الشقاء مدى الدوام.

وأراك في بعض الأحيان مزاحمة في الظاهر لأهل الخير، كأنك واحدة منهم بما تتظاهرين به من حب الخير وبغض الشر، ويعجب الناس أحوالك، وتقصر دون جل أحبابك آمالك، وفي الحين أستشعر منك مالا يشعرون به من كون ذلك منك عارض عرض لغرض، أو ذلك منك مجرد روجان بضاعة، في سوق طاعة، ومالك عن القيام به من استطاعة، أو نحو ذلك مما يكاد أن يخفى أمره عنك، ولا يستوفى حقه منك، وينتفع غيرك بك وأنت غير منتفعة، وتظهرين في الصورة مرتفعة، وأنت في الحقيقة رتبتك متضعة،

أيا حجر الشحذ(60) حتى متى تسن(59) الحديد ولا تقطع

إني لبصير بما أنت عليه في سرك وجهرك، ولكن بارت(61) حيلتي فيك بما تعامليني به، من عجيب أمرك بمكرك، ولا أتيقن منك في دينك ودنياك إلا بما اقتضته الشهادة، ولله ما ثبت في حضرة الغيب من شؤونك، ولست بمسيطر(62) عليك بدون التوفيق، وهيهات هيهات ما التوفيق من قبلي، ولا قدرة لي في الحقيقة على تحصين حالي، وتحسين عملي، وقد أجبتك عن قهر، فلا أقبل في عذلك(63) من عذر، فلذلك ألومك وأشفق من حالك، فلا ينفعك نصحي في حال من الأحوال، ولا ينفعني ما أكابده في شدائد الأوحال، وكأني بك تنشدين.

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

غير أن دعوتك غير مستجابة، إن لم تبادري بالإنابة(64)، فأقول : صدقت أيتها النفس قد طالما دعوتك وأنت لا تجيبين، وكاد ظني فيك يخيب، فهل يا رعاك الله تصدقيني إن استفهمتك عن أحوالك، وما أنت مطالبة به في أقوالك وأعمالك، فهل أديت حق التكليف، فقمت بالمحمود أتم قيام، وانتهيت عن المذموم باحتشام(65)، فوقفت عند الحدود، ولم تضيعي المفترض، ونهضت معه في السنن المقصود، كلما لك عرض، فكنت سليمة الإعتقاد، معرضة عن الشر الذي يتقد بنار الإنتقاد، فسلم الناس من يدك ولسانك، وقصدت مولاك بالعمل الصالح طبق إيمانك، لأنك تابعة في ذلك كله

---

(57) وخامة : ثقل
(58) في بحبوحة : بمعنى في وسط
(59) تسن : سن السكين أي أحده وشحذه
(60) حجر الشحذ : المسن
(61) بارت : كسدت وبطلت
(62) مسيطر : رقيب ومتسلط
(63) عذلك : لومك وعتابك
(64) الإنابة : الرجوع إلى الله بالتوبة الصادقة
(65) باحتشام : بخجل واستحياء

لنبي الهدي (ﷺ)، منذ تكليفك إلى الآن، فماذا تقولين أقال(66) الله عثراتك، وأحبك ولا قلاك(67)، قولي لي أيتها النفس مالي استنطقتك مرارا وأنت لا تخبريني عما أستفهمك عنه، وعهدي بك تنطقين من غير استنطاق، فما بالك ساكتة وقد ضاق بك النطاق(68)، كأني بك تقولين أنا وإن لم تقصر معي في العتاب، فهل لي معذرة ليفتح الحق في قبول الباب، فأني من حين التكليف وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، شاهدة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وبعد هذا لا أشرح لك حالي، لا في حلي ولا ترحالي، فإن توضيح الواضحات من الفاضحات، وجميع ذلك مقرر لديك، وها أنا بين يديك منشدة.

قد كان ما كان مما لست أذكره وقيل ما قيل إن حقا وإن كذبا

ولست بكاذبة إن قلت سعت من أفعالي أفعى(69) لي، وقد أوحى لي ضميري في أوحالي، بأن أعرض عليك حالي.

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك(70) أو يسليك(71) أو يتوجع

فهل لديك من مواساة لي أو ما تسليني به، فإني أراك متوجعا من أجلي، والتوجع غير مفيد لي، ولقد صدقتك فيما قلت أنت، وصدقتك فيما قلت أنا، فأنت أنا وأنا أنت، فانظر للخلاص، قبل القصاص(72)، والسلام.

فقلت لها أيتها النفس : إن كلامك حلو، وفعلك لغو، فأنت المطيعة قولا، والعاصية فعلا، فحالك عندي حال من قيل فيه.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ(73) منك كما يروغ الثعلب

طالما عاهدتني في الرخاء لتكوني لي مؤاخية في الشدة، وكثيرا ما عاملتني بنقيض القصد، بنقض ما أبرمته(74) من أوثق العهود، لتكوني لي في إعانتي على القيام بحق التكليف خير

---

(66) أقال الله عثراتك : أنهظك من سقوطك
(67) ولا قلاك : ولا أبغضك
(68) النطاق : ما يشد به الوسط
(69) الأفعى : حية خبيثة وهي أنواع كثيرة كلها سامة وجمعها أفاعي
(70) يواسيك : يعاونك ويآسيك
(71) يسليك : ينسيك ويكشف عنك
(72) القصاص : الجزاء على الذنب، أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل
(73) راغ : حاد عن الطريق وذهب هكذا وهكذا مكرا وخديعة
(74) أبرمته : بمعنى أحكمته

عمدة(75)، وكلما استدعيتك خارت(76) منك القوى، وخرت(77) قوائمك من الهوى في الهوى، وسولت(78) لي بفعلك مالا يفعل العدو بعدوه، فأكابد(79) ما أكابده من إيقاظك من سنة الغفلة، وأنت تقابليني بإيقاد نيران الفتنة، في ديني ودنياي، وتجديني لك مطيعا، ولا أجدك مطاوعة(80) لي فيما ينفعنا جميعا، وأنت الآن أفصحت لي عما أتحققه منك قولا لا عملا، إلا في إقرارك بالإيمان، فأنت والحمد لله صادقة فيه، ولكن حقه لم تستوفيه، وإن لك دعاوي(81) ما ادعاها سواك، وما أحد فيها ساواك(82)، زعمت تصديقي وصدقي، وطلبت ما طلبته مما ليس من حقك ولا من حقي، فإن واسيتك بمواساة أسأت إلي بما يتجاوز حد الأسى(83)، وإن سليتك بما يخفف عنك مرة، أثقلت ظهري بما لا قدرة لي على حمله بالمرة، ولو توفرت لك الدعاوي لقبول ما أنا له داع لكنت لي مثل ما كنت لك، فأنال أنا ما تنالينه أنت، ونكون يدا واحدة فيما ينفعنا حالا ومآل.

وقد كنت أخبرتك بأني عرفت منك ما تعرفينه مني، غير أني كلما تعرفت لك تنكرت مني، وتقابليني حين أقبل عليك بوجه يلوح على أسرته ما تسره سريرتك، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، فأراك رافلة(84) في أذيال تجرينها تبخترا(85) في بساط الهوى الذي أنت كلفة(86) به مملوءة تعشقا، وقد شغفك(87) حبا ولم تضيقي به صدرا، لمطاوعته لك، ومطاوعتك له، وفيكما يتنزل المثل بكل معنى الكلمة "وافق شن طبقة" وأنا أنظر لكما من وراء ستر الخجل في وجل، متمثلا بقول العاجز عن أخذ ثاره، وإطفاء حرقة ناره.

أهم بفعل الخير لو أستطيعه وقد حيل بين العير(88) والنزوان(89)

فإلي متى والهوى يهوي بك في مهاويه، وأنت له هاوية في الهاوية هاوية(90)، وقد استعان عليك بحب الدنيا التي أعجبتك زخارفها(91)،

---

(75) العمدة : ما يعتمد أي يتكأ عليه
(76) خارت : بمعنى انهدت
(77) خرت : سقطت من علو إلى أسفل
(78) سولت له : أغوته
(79) فأكابد : فأعاني وأقاسي
(80) مطاوعة : موافقة ومنقادة
(81) دعاوي : من الإدعاء يقال : ادعى الشيء أي زعم أنه له حقا أو باطلا
(82) ساواك : بمعنى عادلك وماثلك
(83) الأسى : الحزن
(84) رافلة : بمعنى تحب الترأس والسيادة
(85) بختر : مشى مشية المتكبر المعجب بنفسه
(86) كلفة به : مولعة به تحبه حبا شديدا
(87) الشغف : أقصى الحب
(88) العير : مفرد أعيار وهو الحمار الوحشي
(89) النزوان : يقال نزا الرجل إلى كذا أي طمح له وسارع إليه
(90) هاوية : ساقطة
(91) زخارفها : محاسنها وزينتها

وقد استولت عليك بما لم تدع فيك لغيرها التفاتا، والشيطان مشمر(92) عن ساعده في مساعدتها في إغوائك، بشد العضد فيما يراد منك، وأنت فيك قابلية الإستعداد بمطاوعته لما يلقيه عليك، فتقومين به أتم قيام بأدنى إشارة يشير بها عليك، في معاكستي في كل ما أريد، فكانت إرادتك في متابعته، وتحالفت(93) معه طبق تحالفك مع الدنيا والهوى المتحالفين معه على تهلكتي، فصيرتموني من أضعف الضعفاء، وأنتم أربعة أقوياء، فقلت مستنجدا منشدا،

إني بليت بأربع يرمونني بسهام قوس قطعت أحشائي(94)

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

فها أنا ذا بينكم مقيد بقيود التكليف، وقد أطلقتم أيديكم في وفيما لدي بكل تصريف، ولم تأخذكم شفقة علي، في كل ما تجلبونه إلي، وأنا عديم القوى في مناضلتكم(95)، وكلما قابلت منكم واحدا أقبل علي منكم الباقي، فهلا كنت لي محالفة، ولا تصدر منا مخالفة، فنفرق لجمع كلمتنا شمل الغاوين :

ولكن أبى الله إلا أن تكوني علي لا لي، إلا أن يهديك الحق هداية من أحبه من عباده، فيهدي إليك التوفيق هدية الموفق لطريق رشاده(96)، فإنه سبحانه القادر على ذلك، وهو المستعان على ما تصفون، والحمد لله رب العالمين.

---

(92) مشمر : بمعنى متأهب
(93) تحالفت : تعاهدت
(94) الأحشاء : جمع حشا وهو ما انضمت عليه الضلوع
(95) مناضلتكم : بمعنى في مدافعتكم
(96) رشاده : هدايته